

وصف الكُتَّاب لحمائِ الرسائل

من كتاب: "حسن المحاضرة" للسيوطي

ملخص

منال محرم عبدالمجيد^(*)

حظي عالم الطير بكثير من اهتمام الأدباء، ولذلك تحدثوا عنه شعراً ونثراً. وقد اختلفت أساليب الكتاب وأدواتهم في التعبير عبر العصور، ومن الجدير ذكره دخول عناصر سردية خلال هذه الأساليب، ومن ثم كان السرد أداة من أدوات هؤلاء الكتاب.

ومما يعطى للموضوع جدته وطرافته أن نجد باقة مجموعة في كتاب "حسن المحاضرة" في أخبار مصر والقاهرة^١ للحافظ جلال الدين السيوطي، الذي أكد فكرة أدبية التاريخ، والتي دعمتها نزعة الفنية وبراعته في الانتقاء والتذوق.

وستقف بنا الدراسة عند نصوص أربعة من الكتاب يمكن أن نصنفها تحت باب الرسائل الشخصية الأدبية، وقد حشد هؤلاء الكتاب نصوصهم بشئى الزخرف والبديع إثباتاً منهم لبراعتهم وتمكنهم، وتدور الدراسة فى محاور ثلاثة:

الأول منها يدور حول التعريف، والثانى يشمل التوضيح والتراجم، أما الثالث والأخير فيقتصر على توظيف السرد فى بنية هذه الرسائل آملين من الله أن يوفقنا للصواب والسداد فى الرأى، إنه ولى ذلك والقادر عليه.

* مدرس بقسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة عين شمس.

Writers Description Of Carrier Pigeons: Essayut's Book "Husn El- Muhadarah"

Abstract

Birds' World has always attracted writers' attention in both poetry and prose. Writers' strategies have varied along the ages in expressing such motifs and ideas pertinent to the birds' world. One of these techniques is the narrative one.

The original, innovative features of such works are well-presented in el Hafiz lalal el-Din Essayuti's "Husn el-Muhadarah fi Akhbar Misr wal Kahira". The most distinguishing feature of Essayuti's book is its literary representation of history, supported by both artistic inclination and siilliif selection.

The paper examines four texts by four different writers. The texts might be classified as literary autobiographic journals that are decorated with different types of good style and rhetoric. The study attempts to define such writings according to the literary canon. In addition, it aims to interpret the body of such works and give a biography of the writers. Finally, the paper studies the function of the narrative strategy in the works examined.

حظي عالم الطير بكثير من اهتمام الأدباء باعتباره جزءاً من عالم الطبيعة الحية من حولهم، وقد سلط أدباء العرب الأضواء على الحمايم منذ عصور قديمة، وأبرزوا للمتلقّي شكله وهيئاته المختلفة، كما عدّوا أنواعه، ووصفوا حياته وعاداته، وتكاثره وأرقّ سماته وأغلظها. وقد تناول الأدباء كل ذلك وأكثر فعبروا عنه شعراً ونثراً في أفكار ومعانٍ وأساليب مختلفة متعددة، ولهذا اختلف تناول كلٍ منهم للحمام من حيث زاوية تناول وطريقة التعبير، ومن ثم وجدنا صورة الحمام تتجلى في الكتابات الأدبية منذ القدم، وتنتقل بين أشكال مختلفة من التعبير، وإن كان أليق بالذكر في باب الوصف؛ ففي هذا الباب تجسّد للمعارف العلمية حول هذا الكائن اللطيف، وقد نجده موصوفاً بما يؤديه للبشر من خدمة المراسلات، وهو ما يُسمّى بالحمام الزاجل الذي يدور حوله موضوع الدراسة.

وكثيراً ما وجدنا الحمام مذكوراً في شعر الغزل فهو مرسال المحبين، وبين الزوجين منه ما بين المحبين من البشر، هذا إلى جانب الناحية الحزينة فيه وما يثيره من شجن إذا شوهد مفردة وحيداً. فقد استحضرت صورته تلك الموت والبلى والأسى والحنين، إلى غير ذلك مما تطرّق إليه الأدب بدروبه المنعددة في وصف الحمام. وقد اختلفت "القولب" الأدبية التي تناولت الحمام بين قصائد شعرية مطوّلة، ورسائل وصفية إنشائية. كما اختلفت أساليب الأدباء وأدواتهم عبر العصور، لكن الذي لا شك فيه دخول عناصر سردية خلال هذه الأساليب، ومن ثم كان السرد من أدوات الكتاب الذين اهتموا بتلك الفكرة.

ومما يُعطي لتناول الموضوع جدته وطرافته أن نجد باقة مجموعة في كتاب "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة"⁽¹⁾ للحافظ جلال الدين السيوطي، الذي أكد فكرة هامة، وهي أدبية التأريخ⁽²⁾، فلقد استطاع المؤلف أن يُحسن اختيار النصوص التي يستشهد بها في كتابه، وأن يعرض مقدّمته وبراعته في ذكر طرائف أدبية تلطّف من جفاف واقعية الأحداث التاريخية التي يسردها في كتابه. ولعل ذلك يرجع إلى نزعه الأدبية الخاصة التي برزت في كثير من أعماله وكتاباته.

ولشدّ ما برع السيوطي حين انتقى أسماء لامعة لكتاب عصور مختلفة جمعهم وصف ذلك الطائر المحبّب بأساليب بلاغية، ورغم أن السيوطي تناول هذه الباقة بالجمع دون التعليق فإنها بدت لنا نقطة مضيئة من الوجهة الأدبية حفرتنا إلى القيام بجهد التحليل والتدوّن.

وستقف بنا الدراسة عند نصوص أربعة من الكتاب والتي يمكن أن نصنّفها تحت باب الرسائل الشخصية الأدبية التي تشبه المقالات القصيرة في العصر

الحديث، إيماناً مئاً بأن لكل قالب حدوده التي تحكمه وتشكل ماهيته وشخصيته غير أن ذلك لا يمنع من التداخل والامتزاج المثمر الذي يعود على العمل الأدبي بالنفع والإثراء ، وقد حشد الكتاب نصوصهم بشئى ألوان الزخرف والبديع إثباتاً منهم للبراعة والتمكّن من أدوات اللغة وزمام الأسلوب وفقاً للذوق الأدبي للعصر. ولماً كان أكثر هؤلاء من كتّاب الدواوين الذين انخرطوا في السياسة وأعمال الحُكّام، فقد كانت مثل هذه الرسائل متنفساً لهم يطلقون فيه العنان لقرائهم الأدبية فيبدعون ويبرعون.

وربّما لا نغالي إذا قلنا إن الأديب في مثل هذه النصوص يحاول إشباع مهارته اللغوية، ويسمح بنفق موهبته الأدبية البعيدة عن جفاف العمل، وتقل الأعباء السياسية التي أحاطت بمعظمهم.

و تدور الدراسة في محاور ثلاثة أقمنا عليها بحثنا هذا، الأول منها يدور حول تعريف الحمائم - وخاصة الزاجل منها - من خلال أشهر مَن كتبوا عنها، مؤكدين عشق الأدباء العرب الحديث عنها في مناسبات مختلفة.

أما الثاني فيشمل توضيحاً لما أشكل من معان، مع تقديم ترجمة لأصحاب النصوص و هم:السديد أبو القاسم، و القاضي الفاضل، و ابن عبد الظاهر، و ابن حجة الحموي،

مع تقديم دراسة تفصيلية للنصوص متضمنة سماتها الفنية والأسلوبية، إلى جانب الإشارة بالتفصيل إلى أكثر السمات الفنية المشتركة، أو تلك التي برع فيها أديب دون الآخر، وما إلى ذلك مما تقتضيه الدراسة.

أما المحور الثالث والأخير فقد اقتصر على توظيف السرد في بنية هذه الرسائل، وفيه رصد لأهم الظواهر السردية، وكيف وظفها كل كاتب منهم في خدمة غايته. وهذه الظواهر قد تزيد أو تقل لاعتبارات عديدة منها: البيئة ومدى تأثيرها، والشخصية وميولها وتوجهاتها النفسية، إلى غير ذلك من مؤثرات أساسية تنعكس على الصورة التي يرسمها الكاتب في رسالته الأدبية.

أما بعد فقد كانت هذه مقدّمة يسيرة عن خطوات البحث، داعية من الله السداد والتوفيق، إنه نعم المولى ونعم النصير.

التعريف بحمائم الرسائل:

الحمّام هو "طائر متوسط الجسم، يتميّز بقائمتيه القصيرتين، وريشه الناعم، ورأسه الصغير، وهديله في موسم التناسل، أنواعه كثيرة تقارب الثلاثمائة نوع،

ويتواجد في مختلف أصقاع العالم باستثناء المناطق القطبية والأصقاع الباردة، والجزر النائية، ومنها ما هو أهلي، ومنها ما هو بري⁽³⁾.

أما البري فهو "الذي يلزم البروج، وما أشبه ذلك، وهو كثير النفور، وسُمي برياً لذلك. والثاني الأهلي وهو أنواع مختلفة وأشكال متباينة"⁽³⁾. أما أصواته فهي بين "الهديل والدعاء والترجيع والنوح"⁽⁴⁾. والجمع على: حمامات، حمام، حمام⁽⁵⁾.

أما الحمام الزاجل فهو "حمام يُدرب على الطيران السريع مسافات بعيدة جداً، والعودة، من ثم، إلى الوطن الذي أطلق منه. و يُستخدم في نقل الرسائل. والمؤرخون يذكرون أن العرب أنشأوا عام 1150م في بغداد نظاماً بريدياً خاصاً قوامه الحمام الزاجل."⁽⁶⁾

ويقال إن الحمام الرسائلي هو أغلى الحمام قيمة، وأعلاه رتبة "وهو الذي يتَّخذه الملوك لحمل المكاتبات، ويُعبّر عنه بالهدى"⁽⁷⁾.

وعن براعته ومعرفته يقول الجاحظ: "وللحمام حُسْنُ الاهتمام، وجودة الاستدلال وثبات الحفظ والتذكر، وقوة النزاع إلى أربابه والإلف لوطنه"⁽⁸⁾.

فالحمام دائماً "يطلب وكره من بُعد، ويحمل الأخبار ويأتي بها من بلاد بعيدة من المَدُن القريبة ورُبَّما اصطيد وغاب عن وطنه عشر حجج فأكثر ثم هو على ثبات عقله وقوة حفظه ونزوعه إلى وطنه حتى يجد فرصة فيطير إليه"⁽⁹⁾.

أما عن طريقة حمله الرسالة فكانت "الرسائل تُشدُّ إلى ظهر الحمامة أو تعلّق بإحدى قائمتيها بمشبك مُعدّ خصيصاً لهذا الغرض"⁽¹⁰⁾.

وقد عرفه الأدب على اختلاف عصوره وتوالي أزمنته، وعُني بوصفه في الشعر والنثر، سواءً من حيث أوصافه المجردة، وما تتم عليه من مظاهر الجمال، أو من حيث علاقته بالإنسان وأوجه الشبه بينهما من خلال مهمته في نقل الرسائل والمكاتبات.

وللحمام مظهر قد يدخل على النفس البهجة والارتياح في أحيان كثيرة، وقد يثير الشجن لتذكّر الأحبة أو الأوطان في أحيان أخرى، إلى غير ذلك من معان تختلف باختلاف مناسبة الكتابة.

وصورة الحمام كثيراً ما تقترن بصورة الطبيعة الجميلة، فهو دائم الظهور في الرياض ووسط الحدائق أو في السماء حيث يتعانق مع السحب والنجوم. فمن صور الحمامة الباعثة على الحنين، قول جهم بن خلف في قمرية:

وقد شاقني نوح قُمرية طروب العشي هتوف الضحى
من الورق نواحة باكرت عسيب أشاء بذات الغضا

يُهَيِّجُ لِلْجَبِّ مَا قَدْ مَضَى
بَدْعُوهُ نُوحَ لَهَا إِذْ دَعَا⁽¹¹⁾

تَغْنَّتْ عَلَيْهِ بِلَحْنٍ لَهَا
مَطْوِقَةٌ كَسَيْتْ زِينَةَ

وفي تشبيه حاله بالأحبة قول الشاعر:
لم أعطها بيدي إِذْ بَتُّ أَرْشُفُهَا
كما تطاعم في خضراء ناعمةٍ

إِلَّا تَطَاوَلَ غُصْنُ الْجَبِّ بِالْجَبِّ
مُطَوَّقَانِ أَصَاخَا بَعْدَ تَغْرِيدِ⁽¹²⁾

وعن جماله مسرعًا يقول عبد الواحد بن فتوح الأندلسي:

كالبرق أومض في السحاب فأبرقًا
يَوْمًا لَجَاءَكَ مِثْلُهَا أَوْ أَسْبَقًا
وَالْأَفَقَ ذَا السَّفْهِ الرُّفِيعَةِ مُرْتَقَى
فِي الْجَوِّ تَحْسِبُهُ الشَّهَابُ الْمُحْرِقًا
وَتَكَادِ آيَةُ عُنُقِهِ أَنْ تَنْطِقَا
لَيْسَ الزَّجَاجَةُ أَوْ تَجَلَّيْبُ زَيْبًا⁽¹³⁾

يَجْتَابُ أَوْدِيَةَ السَّحَابِ بِخَافِقٍ
لَوْ سَابَقَ الرِّيحَ الْجَنُوبَ لَغَايَةَ
يَسْتَقْرِبُ الْأَرْضَ الْبَسِيطَةَ مَذْهَبًا
وَيَظِلُّ يَسْتَرْقِي السَّمَاءَ بِخَافِقٍ
يَبْدُو قَيْعُجِبَ مَنْ رَأَاهُ لِحُسْنِهِ
مُتَرْقِقًا مِنْ حَيْثُ دُرَّتْ كَأَنَّمَا

فصل في ذكر حمائم الرسائل: "الشرح و التعريف"

قال ابن كثير⁽¹⁴⁾ في تاريخه: في سنة سبع وستين وخمسائة: "اتخذ السلطان نور الدين الشهيد⁽¹⁵⁾ الحمام الهوادي⁽¹⁶⁾، وذلك لامتداد مملكته واتساعها، فإنها من حدّ النوبة إلى همدان. فلذلك اتخذ قلعة وحبس الحمام التي تسري في الآفاق في أسرع مدة، وأيسر عدة، وما أحسن ما قال فيهنّ القاضي الفاضل⁽¹⁷⁾: الحمام ملائكة الملوك. وقد أطنب في ذلك العماد الكاتب⁽¹⁸⁾ وأظرف وأطرب⁽¹⁹⁾. وأعجب وأغرب.

وفي سنة إحدى وتسعين وخمسائة، اعتنى الخليفة الناصر لدين الله⁽²⁰⁾ بحمام البطاقة⁽²¹⁾ اعتناءً زائدًا حتى صار يكتب بأنساب الطير المحاضر، أنه من ولد الطير الفلاني، و"قليل، إنه بيع بألف دينار"⁽²²⁾.

وقد ألف القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر⁽²³⁾ في أمور هذه الحمام كتابًا سمّاه "تمائم الحمام"⁽²⁴⁾، وذكر فيه فصلاً فيما ينبغي أنه يفعله المنطق وما جرت العادة به في ذلك فقال: "كان الجارى به العادة أنها لا تحمل البطاقة

إلا في جناحها لأمور منها، حفظها من المطر، ولقوة الجناح. والواجب أنه إذا انطلق من مصر لا يطلق إلا من أمكنة معلومة، فإذا سرّحت إلى الإسكندرية فلا تُسرّح إلا من منية عقبة بالجيزة، وإلى الشرقية، فمن مسجد التين ظاهر القاهرة، وإلى دمياط، فمن بسوس بشرط بحر منجى. والذي استقرت قواعد الملك عليه، أن

طائر البطاقة لا يلهو الملك عنه ولا يغفل ولا يمهل لحظة واحدة فتقوت مهمات لا تُستدرك. إمّا من واصل، وإمّا من هارب، وإمّا من متجدّد في الثغور.

ولا يضع البطاقة من الحمام إلاّ السلطان بيده من غير واسطة أحد، فإن كان يأكل لا يمهل حتى يفرغ، وإن كان نائمًا لا يمهل حتى يستيقظ بل يُنبّه. وينبغي أن تُكتب البطائق في ورق الطير المعروف بذلك".

قال: ورأيت الأوائل لا يكتبون في أوائلها ببسمة. قال: وأنا ما كتبتها قط إلاّ ببسمة للبركة، وتورّخ بالساعة واليوم، لا بالسنين؛ وينبغي ألاّ يُكثر في نعوت المخاطب فيها، ولا يذكر في البطائق حشو الألفاظ، ولا يكتب إلاّ لب الكلام وزيدته. ولا بد أن يكتب شرح الطائر ورفيقه إن كانا طائرين قد سُرحا؛ حتى إن تأخر الطائر الواحد ترقب حضوره، أو يطلق لئلا يكون قد وقع في بُرج من أبراج المدينة. ولا يعمل للبطائق هامش، ولا يحمّد، وجرت العادة بأن يُكتب في آخرها "وحسبنا الله ونعم الوكيل"، وذلك حفظ لها."

ومن إنشاء القاضي الفاضل في وصف حمائم الرسائل:

"سرحت⁽²⁵⁾ لا تزال أجنحتها محسّلة من البطائق⁽²⁶⁾ أجنحة، وتجهّز جيوش المقاصد والأقلام أسلحة، وتحمل من الأخبار ما تحملها الضمائر، وتطوي⁽²⁷⁾ الأرض إذا نشرت الجناح الطائر، وتزوي⁽²⁸⁾ لها الأرض حتى ترى ملك هذه الأمة، وتقرب من السماء حتى ترى ما لا يبلّغه وهم⁽²⁹⁾ ولا همّة⁽³⁰⁾، وتكون مراكب للأغراض، وكانت الأجنحة قلوغا⁽³¹⁾، وتركب الجو بحرًا تصقّق فيه هبوب الرياح موجًا مرفوعًا، وتعلّق الحاجات على أعجازها⁽³²⁾، ولا تقوت الإرادات عن إنجازها. ومن بلاغات⁽³³⁾ البطائق استفادت ما هي مشهورة به من السجع، ومن رياض كتبها ألفت الرياض فهي إليها دائمة الرجوع⁽³⁴⁾. وقد سكنت البروج⁽³⁵⁾ فهي أنجم، وأعدّت في كنائنها⁽³⁶⁾ فهي للحاجات أسهم.

وكادت تكون ملائكة لأنها رُسل، فإذا نيطت⁽³⁷⁾ بالرقّاع⁽³⁸⁾ صارت أولى أجنحة مثني وثلاث ورباع. وقد باعد الله بين أسفارها وقربها، وجعلها طيف خيال اليقظة الذي صدّق العين وما كدّبها. وقد أخذت عهود الأمانة في رقابها أطواقا، فأدبتها من أذنانها أوراقا، وصارت خوافي من وراء الخوافي⁽³⁹⁾.

وغطّت سرها المودع بكتمان سحبت عليه ذيول ريشها الضّوافي. وترغم أنف النوى بتقريب العهود، وتكاد العيون تلاحظها تلاحظ أنجم السعود⁽⁴⁰⁾. وهي أنبياء الطير لكثرة ما تأتي به من الأنبياء، وخطباؤها لأنها تقوم على الأغصان مقام الخطباء."

وقال في وصفها شيخ الكُتّاب ذو البلاغتين السديد⁽⁴¹⁾ أبو القاسم شيخ القاضي الفاضل: "أما حمام الرسائل، فهي من آيات الله المستنطقة الألسن بالتسبيح، العاجز عن وصفها إعجاز البليغ الفصيح فيما تحمله من البطائق، وتردُّ به مسرعة من الأخبار الواضحة الحقائق، وتعالیه في الجو محلقاً عند مطاره، وتهذبّه على الطريق التي عليها ليأمن من فوت الإدراك وأخطاره، ونظره إلى المقصد الذي يسرح إليه من عليّ، ووصوله إلى أقرب الساعات بما يصل به البريد في أبعد الأيام من الخبر الجليّ. ومجيئه معادلاً لرعوس السّفار مسامثاً، وإيثاره بالمتجددات فكأنه ناطق وإن كان صامتاً، وكونه يمضي محمولاً على ظهر المركوب، ويرجع عاملاً على ظهره للمكتوب، ولا يعرّج على تذكار الهدير ولا يسأم من الدأب في الخدمة زائداً على التقدير، وفي تقدّمه البشائر يكون المعني بقولهم: أيمن طائر، ولا غرو أن فارق رسل أهل الأرض وفاتهم.

وهو مركبه، والرياح موكبه، وابتداء الغاية شوطه، والشوق إلى أهله سوطه. مع أمنه ما يحدث لمنتاب السّفار ومخبّات القفار، من مخاوف الطوارق وطوارق المخاوف، ومتألف الغوائل وغوائل المتألف، إلّا ما شدّ من اعتراض خارج جارج وانقضاض كاسب، فكفّ سعادة الدولة تأميمه، وتصدّ عنه تصميمه، لأنّه أخذ جيشها من الطيرين اللذين يحدثان في أعدائهما هذا بالإنذار العاجل، كيدهم في تضليل، وذلك بما ترى رايتها المنصورة عليهم من تضليل.

وقال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر: "لما وقفت على ما أنشأه القاضي الفاضل، وعلى ما أنشأه الشيخ السديد أردت أن أجربّ خاطر، فأنشأت وأنا غير مخاطب أحداً بل مخاطر، وأين الثرى⁽⁴²⁾ من الثريا⁽⁴³⁾، وما الحسن لكل أحد يتهيّا، وعليّ أن أجيب وما عليّ أن أجيد. وما كلّ والد يدرك شأو الوليد، ولا كلّ كاتب عبد الرحيم⁽⁴⁴⁾، ولا عبد الحميد⁽⁴⁵⁾، فقلت:

أما حمائم الرسائل فكم أغنت البُرد⁽⁴⁶⁾ عن جَوْب القفار، وكم قدّت جيوبها⁽⁴⁷⁾ على أسرى أُميرار، وكم أعارت السهام أجنحة، فأحسنّت بتلك العارية المطار، وكم قال جناحها لطالب النجاح: لا جُنّاح⁽⁴⁸⁾. وكم سرّت فحمدت النساء إذا حمّد غيرها من السارين الصباح، وكم ساوقت⁽⁴⁹⁾ الصبّا⁽⁵⁰⁾ والجنايب⁽⁵¹⁾ ففاقتهما، ولم تحوج سلام المشتاقين إلى امتطاء كاهل الرياح.

كم حسنّ ملك كلّ منها ملك، وكم قال مسرّحها لمجيئه بها: قرّة عين لي ولك، كم أجملت في الهوى تقلّباً، وإذا غنّت الحمام على الغصون صممت من الهديل⁽⁵²⁾

والهدير⁽⁵³⁾ تادبا، كم دفعت شكا بيقينها، ورفعت شكوى بتبينها، وكم أدت أمانة ولم تعلم أجنحتها بما في شمالها ولا شمالها بما في يمينها.

كما نفقت منها الساق بالساق، فأحسن لتربها المساق، وكم أخذت عهد الأمانة فببت أطواقا⁽⁵⁴⁾ في الأعناق، ويُقال ما تضمنته البطائق بعض ما تعلق منها في الرياض من الأوراق، تسبق اللوح⁽⁵⁵⁾، وكم استفتح بها بشير إذا جاء بالفتح، تقوت الطرف السابق، والطرف الرامي الرامق. وما تلت سورة البروج إلا وتلت سورة الطارق. كم أنسى مطارها عذو السلكة⁽⁵⁶⁾ والسلوك، وكم غنيت في خدمة سلطانها عن الغناء، وقال كل منهما لرفيقه: إليك عن الأيك.

ما أحوج تصديقهما في رسالتهما إلى الإعزاز بثالث، وكم قيل في كل منهما لمن سام هذا حام في خدمة أبناء يافث.

كم سرحا بإحسان، وكم طارا بأفق فاستحق أن يقال لهما: فرسا سحاب إذا قيل لأحدهما فرسا رهان، حاملة علم لمن هو أعلم به منها، يُغنى السقار والسفاره فلا تحوجهم إلى الاستغناء عنها. تغدو وتروح وبالسرا لا تبوح، فكم غنيت باجتماعها بالفا عن أنها تتوح، وكم سارت تحت أمر سلطانها أحسن السبر، وكم أفهمت أن ملك سليمان إذ سخر له منها في مهماته الطير، أسرع من السهام المفوقة، وكم من البطائق مخلقة وغير مخلقة، كم ضللت من كيد، وكم بدت في مقصورة دونها مقصورة ابن دريد⁽⁵⁷⁾.

ومن إنشاء الأديب تقي الدين أبو بكر بن حجة⁽⁵⁸⁾ في ذلك:

سرح فما سرح العيون إلا دون رسالته المقبولة، وطلب السبق فلم يرض بعرف البرق سرحا ولا استظل صفحته المصقولة،

وكم جرى دونه النسيم فقصر وأمست أذياله بعرف السحب مبلولة. وأرسل فأقر الناس برسالته وكتابه المصدق: كتب يُجاب وعلى يدي يُخلق، يؤدي ما جاء على يده من التوسل فيهبج الأشواق، وما برحت الحمام تحسن الأداء في الأوراق، وصحبناه على الهدى فقال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ ومن روى عنه الحديث المسند، فعن عكرمة⁽⁵⁹⁾ قد روى، يطير مع الهوى لفرط صلاحه، ولم يبق على السر المصون جناح إذا دخل تحت جناحه. إن برز من مقصده⁽⁶⁰⁾ لم يبق للصرح⁽⁶¹⁾ الممرّد قيمة، بل ينزل بتدبيج أطواقه ويعلق عليه من العين تلك التميمة⁽⁶²⁾، ما سجن إلا صبر على السجن وضيقه الأطواق. ولهذا حُمدت عاقبته على الإطلاق، ولا غنى على عود إلا أسال دموع الندى من حدائق الرياض، ولا أطلق من كيد الجو إلا كان سهما مريشا تبلغ به الأغراض.

كم علا فصاد بريش القوادم⁽⁶³⁾ كالأهداب لعين الشمس، وأمسي عند الهبوط لعيون الهلال كالطمس⁽⁶⁴⁾؛ فهو الطائر الميمون والغاية السبّاقة، والأمين الذي إذا أودع أسرار الملوك حملها بطاقة؛ فهو من الطيور التي خلا لها الجو فنقّرت ما شاءت من حبّات النجوم، والعجماء التي من أخذ عنها شرح المعلقة، فقد أعرب عن دقائق المفهوم والمقدمة والنتيجة للكتاب الحبلى في منطق الطير. وهي من حملة الكتاب الذي إذا وصل القارئ منه إلى الفتح يتهلل لحبه الخير؛ إن يصدر البازي⁽⁶⁵⁾ بغير علم، فكم جمعت بين طرفي كتاب، وإن سألت العقبان⁽⁶⁶⁾ على بديع السجع أحجمت عن ردّ الجواب.

رعت النسر بقوة جيف الفلا ورعى الذباب الشهد وهو ضعيف

ما قديمت إلا وأرتنا من شمائلها اللطيفة نعم القادمة، وأظهرت لنا من خوافيها ما كانت له كاتمة. كم أهدت من مخابها وهو غادية ورائحة، وكم حثت إليها الجوارح وهي أدام الله إطلاقها عزّ جارحة. وكم أدارت من كؤوس السجع ما هو أرقّ من قهوة الإنشأ، وأبهج على زهر المنثور من صبح الأعشى. وكم عامت بحور الفضاء ولم تحفل بموج الجبال، وكم جاءت ببشارة وخضبت الكف من تلك الأمانة قلّامة الهلال⁽⁶⁷⁾.

وكم زاحمت النجوم بالمناكب، حتى ظفرت بكلّ كفّ خضيب، وانحدرت كأنها دمة سقطت على خدّ الشقيق لأمر مريب، وكم لمع في أصل الشمس خضاب كفيها الوضّاح، فصارت بسموها وفرط البهجة كمشكاة فيها مصباح. والله تعالى يديم أفنان أبوابه العالية ألحان السواجع، ولا برج تغريدها مطرباً بين البادئ والراجع.

التحليل الفني للنصوص :

أولاً: نصاً محيي الدين بن عبد الظاهر،

أولهما من "تمائم الحمام"

إن من ينظر في هذا النص يحكم عليه بالوصفية التاريخية أكثر من الإنشائية، ولذلك يميل الكاتب بأسلوبه نحو المنطقية والعرض التسلسلي للأفكار مع إبراز الحجة في سردها. ولعل اختياره لهذا الأسلوب كان موافقاً لموضوع الكتاب وهو جمع لكل ما يمتّ لحمايم البطاقة بصلة، ولهذا لم يكن غريباً أن يخلو النص أو يكاد من الزينة اللغوية المحتشدة أو الزخرفة الشديدة والاحتفاء بالمحسنات البديعية. فمهمة الكاتب هنا كانت تاريخية أكثر من أدبية، ولذلك أطلق العنان لقلمه فراح يصف دون التزام بأي من أشكال الزينة.

وقد اتّسم أسلوب الكاتب في هذا النص بعدة خصائص منها:

الميل إلى سرد الأفكار بصورة منظّمة، مع ذكر الأمر وعُلته المنطقية، من ذلك أنه لما ذكر أن حمام البطاقة لا يحمل رسالته إلا في جناحه، حرص على توضيح الأسباب وعددها في: (1) حفظها من المطر، و(2) لقوة الجناح. وكذلك حين ذكر أهمية المتابعة الشخصية من الملك لحمام البطاقة، عدد أسباب ذلك بقوله: "لا يلهو الملك عنها ولا يغفل ولا يمهل لحظة واحدة فتقوت مهمات لا تُستدرك (1) إمّا من واصل (2) وإمّا من هارب (3) وإما من متجدد في الثغور.

والكاتب هنا يجمع أسباب هذا الاهتمام الملكي، ويعلّل له، وفي هذا التعليل إشارة غير مباشرة للمهام الجسام التي يقوم بها حمام الرسائل.

كما أنه حرص على الوصف الدقيق لأماكن الإطلاق والتسريح، ومن ثم حشد لنا أسماء الأماكن والبلدان التي كان متعارفاً عليها في عهده، ومن هذه الأماكن المذكورة: الإسكندرية، ومنية عقبة بالجيزة، والشرقية، ودمياط وبسوس، وحتى مسجد التين بالقاهرة. وهذا الحشد من الأسماء يُظهر شيئين في أسلوب الكتاب: أولاً: الميل إلى تأكيد واقعية أسلوبه الوصفي.

ثانياً: إبراز مواقع منموسة لتأكيد فكرة التأريخ تلك، وذلك بشكل مختصر دقيق واضح.

ولعل تغليب صيغتي الأمر والنفي هو السمة العامة لأسلوب هذا النص، فالكاتب يكرر صيغة النفي، من ذلك قوله: "ولا يضع البطاقة من الحمام إلا السلطان" "ولا يذكر في البطائق حشو الألفاظ، ولا يُكتب إلا لبّ الكلام وزيدته، ولا يعمل للبطائق حشو ولا يحمّد".

ومن صيغ الإلزام قوله "وينبغي بأن تكتب البطائق من ورق الطير" "ولابد أن يُكتب شرح الطائر ورفيقه" وفي لفظتي "ينبغي"، و"لابد" تأكيد على ضرورة الالتزام بالفعل، وفساد مهمة الإرسال إذا لم يُراع الالتزام، وكأن الكاتب هنا يقصد الغاية النفعية التعليمية والتنقيف بهذا الأمر.

وفي الأسلوب ما يشير إلى أهمية هذا الطائر وجسامته مهمته، ولذلك نستشعر منذ الوهلة الأولى للقراءة أننا مقبلون على معرفة أسرار وأمور مهمة عن ذلك النوع من الحمام؛ والكاتب بذلك يقصد أن يستبعد عن فكر القارئ كل ما يوهم بعكس ذلك، كأن يعتد ببساطة هذا الطائر، أو يستخفّ بما يؤديه، ولعل الكاتب وُقّق حين ذكر "الملك". ليعطي لهذا الحمام أهميته التي يستحقها، ومكانته التي تجعل الملك لا يغفل عنه أبداً، فإذا كان نائماً ووصل حمام البطاقة أيقظوه، وفي قوله: "لا يُمهل .. بل يُنبّه" ما يخدم تلك الفكرة..

وهذا برمته لا يعيب النص النثري الذي تُعدّ غايته الأولى هي الغاية "النفعية" إذ إن مقدار ما يُضاف من الفن إلى النثر يُعتبر أمراً ثانوياً، فهو لا يعدو أن يكون نوعاً من الحلية كالزخرفة يُحلى بها السيف. دون أن تغير في حقيقته شيئاً، فهو سلاح يستعمل في المعارك دائماً⁽⁶⁸⁾.

هذا يعكس ما نجده في نصه الثاني الذي قاله عارضاً مساجلة أدبية بارعة بعد اطلاعه وتأثره بنصّي القاضي الفاضل والشيخ السديد، ومن ثم جاء نصاً "ملئياً بحشود من السجع والجناس واللوان البديع التي شاكلت المدرسة الفاضلية في الكتابة الأدبية، ومن سمات الكاتب الأسلوبية في هذا النص:

التزام الجناس غير التام الذي يختلف فيه اللفظان في أنواع الحروف تارة وأعدادها تارة أخرى، من ذلك قوله: مخاطر — مخاطب — الخاطر، والنثرى — النثريا، و أجيب — أجيد، والهديل — الهدير، والرامي — الرامق. وكذلك ظهر جناس القلب في قوله: جناح: نجاح، إليك: الأيك. أما الجناس التام فورد مرة واحدة في قوله: "مقصورة" التي هي المنصة العالية، و"مقصورة" ابن دريد أي القصيدة الشهيرة.

الحرص على التزام السجع بين الفواصل في أغلب فقرات النص، مثل قوله: وما كلّ والدٍ يدرك شأو الوليد، ولا كل كاتب عبد الرحيم ولا عبد الحميد. وكذا قوله: تغدو وتروح، وبالسراً لا تبوح. وكما في قوله: وكم قدّت جيوبها على أسرى أسرار، وكم أعارت السهام أجنحة فأحسنّت بتلك العارية المطار. وكذلك قوله: وكم أخذت عهود الأمانة فبدت أطواقاً في الأعناق، ويقال ما تضمنته من البطائق بعض ما تعلّق منها في الرياض من الأوراق. وقوله: تسبق للمح، وكم استفتحت بها بشيرٌ إذا جاء بالفتح، وقوله: كم ضللت من كيد وكم بدت في مقصورة دولها مقصورة ابن دريد، وكما هو واضح فإن الجمل تختلف وزناً (طولا وقصراً) وتتفق رويّاً.

كما يؤثر الكاتب استخدام ألفاظ التضاد والطباقات المتعددة، وذلك لإبراز المعنى وتوكيده، من ذلك قوله في طباق الإيجاب: المساء الصباح، شگًا — بيقينها، شمالها — يمينها، والد — وليد، ومن طباق السلب بين الإثبات والنفي قوله: مخلّقة وغير مخلّقة.

كما أثر الكاتب الاقتباس من القرآن الكريم فجمع حشدًا من العبارات التي في أصلها ألفاظ وردت في آيات من القرآن، وقد حصرنا هذه الألفاظ ورددناها إلى آياتها وسورها من ذلك:

قدّت جيوبها: عن الآية 26 من سورة يوسف بتصرف ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ وقوله قرّة عين لي ولك: من قوله تعالى على

لسان امرأة فرعون ﴿ وَقَالَتْ امْرِأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةَ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ آية 9 سورة القصص. وكذلك قوله: "التَّقَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ، فَأَحْسَنْتَ لِرَبِّهَا الْمَسَاقَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَالتَّقَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ، إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ آية 29، 30 من سورة القيامة.

والإشارة إلى سورتي البروج، والطارق. وقوله: الإعزاز بثالث، من قوله تعالى: ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ آية 14 من سورة يس، وقوله سرَّحًا بإحسان من قوله تعالى: ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ يَمَعُوفٌ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ آية 229 من سورة البقرة، وقوله "ملك سليمان" من قوله تعالى: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ آية 102 من سورة البقرة، وقوله مخلقة وغير مخلقة. من قوله تعالى: ﴿ مُخْلَقَةٌ وَغَيْرُ مُخْلَقَةٍ ﴾ آية 5 من سورة الحج.

وقد حرص "الكاتب على تكرار اللفظ "كم" وذلك لتعداد فوائد حمام الرسائل وتأكد أن كله منافع للناس، وفي التكرار ما يخدم هذا المعنى ويؤكد، فلا تكاد عبارة في النص إلا وتبدأ "بكم".

وأخيرًا لعل إقرار المؤلف بمحاولة احتذاء حذو السابقين عليه في تلك المطارحة الأدبية. يرجع إلى أن ذلك النوع من الرسائل الفنية يخلق تواصلًا بين العصور الأدبية المختلفة، تلك العصور التي "ترتبط الناس فيها بروابط الصداقة والفكر ويوجد الإحساس بالحاجة إلى تبادل الأفكار وإلى الإفضاء بما في القلب من عواطف، وهنا يزداد عدد الرسائل. كما تكتسب الرسائل نفسها فوائد متعددة إذ إنها تحل محل المحادثة بين الأشخاص الذين فرقت بينهم المسافات أو الأزمان (70) 0

ثانياً: نص القاضي الفاضل

شكَّلت الرسائل الأدبية ميدانًا واسعًا للإبداع بين الكُتَّاب، ولمَّا كان القاضي الفاضل شيخ كُتَّاب عصره فقد شكَّلت كتاباته وأسلوبه مدرسة احتذى بها الأدباء في عصره ومن بعده.

وقد اعتمد القاضي الفاضل في رسالته هذه على الصورة التي ولَّدها الخيال، إذ أنه "بعد أن يتأثر الإحساس بنطلق بدوره ليؤثر في المخيلة، ومن شأن هذا التأثير أن يستدعي الصور، ومثال ذلك أن يتحدث المرء على لسان الحيوانات، وأن يصوِّر الشيء الذي هو موضوع الحديث بالألوان المتقنة حتى ليبدو للسامع كأنه يراه ماثلاً أمامه" (71).

والقاضي الفاضل من تلك النخبة من الأدباء الذين يعرفون كيف ينتقون الألفاظ المناسبة لمعانيهم وأفكارهم كما يعرف كيفية الملاءمة بينها بما يحقق إبراز تلك

المعاني والأفكار بشكل مؤثر باق. وهو يبذل في ذلك مجهودًا واضحًا، إذ إن الألفاظ لا تأتي عنده اعتباطًا، ومع ذلك نحن لا نذهب إلى أنه تعمدها أو قصدها قصداً، بل الأقرب إلى ذلك أنه بوصفه ذا حنكة أدبية وقرينة بلاغية وحصاد لغوي غزير كان يستطيع أن يؤلف بين الألفاظ بحسب معانيه بحيث يتحقق الجمال والتأثير معاً، وهذه مقدرة وبراعة، وخاصة في وصف طائر مثل الحمام وإظهاره في تلك الصور القوية.

ومن السمات الواضحة في أسلوب القاضي الفاضل أنه يحسن المزج بين صفات الإنسان وصفات الطائر، وبين وصف الحمام ووصف الطبيعة، وإن كان ذلك شائعاً في الشعر، غير أنه أجاد في تلك الناحية بحيث تظهر الصور الممتزجة متجانسة وكأنها أركان صورة تتلاقى لتكوّن لوحة فنية مكتملة. وهكذا تتوالى لوحاته من خلال أسلوب الرسالة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن هذا المزج يُعلي من شأن الحمام ويؤكد قيمتها. ومن أمثلة المزج بين صفات الحمام والبشر قوله: "تجهّز جيوش المقاصد والأقلام أسلحة". وهو أحياناً يبالغ فيجعلها تتجاوز قدرات البشر حين يقول: "وتقرب من السماء حتى ترى ما لا يبلغه وهم ولا همة". وقد ارتقى بقدراتها حين وصفها أنها أنبياء الطير، رعل لذلك بأنها تأتي بالأنباء، وأن غصون الأشجار هي ساحتها.

ولقدرات هذا الحمام الهائلة طوت الأرض واقتربت من السماء فكانها ملكة بجناحيها ما بينهما، والعلاقات مستمرة بين حمام الرسائل وشتى جوانب الطبيعة من سماء وأرض ورياض وأنجم، وكان بينها لغة حوار وتغام، ومن ثم تكتمل مقدرته التعبيرية بتوافر عناصرها من لفظة منقاة وعبارة فنية، وخيال في التصوير.

والخيال عند الكاتب عنصر هام دائم الانطلاق من خلاله، ولذلك كان جُلّ اهتمامه أن يؤثر في النفوس من خلال إشباع ذلك الجانب فـ "بقدر ما يكون النص الأدبي بعيداً عن الالتزام بالحقائق النظرية المجردة والقواعد الثابتة والمحسوسة يكون مقام الصورة فيه ذا دلالة واضحة وقوية على عمق تأثيرها وقيمتها الفنية والأدبية"⁽⁷²⁾.

ومن ثم يمكننا أن نقول إن الخيال يعبر عن ذوق صاحبه، كما أن له دلالات جمالية تظهر في الصورة التي يرسمها الأديب.

وربما تبدو السمات الفنية عند القاضي الفاضل هي نفسها عند أساتذته الشيخ السديد وعند غيره من الكتّاب الذين وصفوا حمام الرسائل، لكن الحقيقة أن السمات البلاغية لا يكاد واحد يستأثر بها، فكما قال الجاحظ: "المعاني ملقاة في الطريق"،

ولذلك يمكن أن تجد بعض السمات المتكررة بين هؤلاء الكتاب على اختلاف عصورهم، مثل الاقتباس من القرآن الكريم وإيثار الأسلوب المسجع أكثر من المسترسل، والميل إلى الجنس بأنواعه، إلى غير ذلك من زخارف وبديع.

والجيد في أسلوب القاضي الفاضل أنه يستطيع التأليف بين الألفاظ المتضادة أو التي بينها جناس أو غيره بحيث ينجح في توضيح مدلول كل من اللفظتين في انسجام، بما يلائم الطبع والذوق الأدبي. ومن أمثلة الطباق الإيجابي قوله: تطوي — نشرت، باعد — قربها، القرى — تقرب.

ومن خلال سجع الكاتب في هذا النص نستشعر كيف أن عباراته تتوازن، وألفاظه تتجانس في إيقاع مكتمل، وجرس مستحب، من ذلك قوله: "سرحت لا تزال أجنحتها محملة من البطائق أجنحة، وتجهز جيوش المقاصد والأقلام أسلحة". وقوله: "وتعلق الحاجات على أعجازها، ولا تفوت الإرادات عن إنجازها". وكذلك قوله: "قد سكنت البروج فهي أنجم، وأعدت في كنانها فهي للحاجات أسهم"، وفي العبارة مراعاة النظر، إذ النجوم تسكن الأبراج، أما السهام فتسكن الكنان.

وهو يقن استخدام أدوات الربط والتعليل بين الجمل، مثل قوله: "وهي أنبياء الطير لكثرة ما تأتي به من الأنبياء، وخطباؤها لأنها تقوم على الأغصان مقام الخطباء" فلام التعليل، ولفظة "لأن" تخلق روحاً من الترابط والتماسك بين العبارات. وهو ما يجعل الأسلوب أكثر تأثيراً وإقناعاً، فهو لا يذكر الأمر فقط بل يثريه بوسائل التفسير وإبراز الفائدة من وراء ذكره لهذا الخبر أو ذاك.

هذا إلى جانب الصور البيانية المتناثرة في النص بين استعارات وتشبيهات مختلفة. وكذلك الاقتباسات من القرآن الكريم، مثل قوله: "وتطوي الأرض" من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ﴾ آية 104 سورة الأنبياء. وقوله "مثنى وثلاث ورباع" من قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَلْوِي أَجْنَحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ آية 1 من سورة فاطر وقوله: الرجع، من قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ وقوله: باعد الله بين أسفارها، من قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾.

وبعد هذا العرض لأهم خصائص أسلوب القاضي الفاضل في رسالته، لا نتعجب حين نقرأ وصف العماد الأصفهاني المعاصر له بأنه: "رب القلم والبيان واللسن واللسان، وصاحب القريحة الوقادة والبصيرة النقادة، والبديحة المعجزة والبديحة المطرزة"، والفضل الذي ما سُمع في الأوائل، ممن لو عاش في زمانه

لتعلق بغباره، أو جرى في مضماره، فهو كالشريعة المحمدية التي نسخت الشرائع ورسخت بها الصنائع⁽⁷³⁾.

ثالثاً: " نص الشيخ السديد أبو القاسم:

والكاتب هنا هو شيخ القاضي الفاضل الذي أثر في أسلوبه كثيراً، وقد اعترف القاضي الفاضل بإعجابه الشديد بكتابات وحرصه على اقتنائها، وحفظها شعراً ونثراً.

والشيخ السديد هنا يتسم أسلوبه بعدة سمات منها:

الحرص الشديد على التزام السجع بين الجمل، وذلك مثل قوله: التسبيح والفصح، مطاره: أخطاره، عليّ: الجليّ، ومسامئاً: صامئاً والمركوب: المكتوب، والهدير: والتقدير.. إلى آخر النص. كما يبرز الكاتب حنين الطائر الذي يدفعه إلى تنفيذ مهمته، وهو هنا يختلف عن غيره من الكتاب حين يبرز جانب العاطفة عند الطائر أكثر من فكرة تنفيذه للأوامر كالجندي المأمور.

ويشترك الكاتب مع الآخرين في الانعيل لما يقول، فهو يأتي بفكرة العجز عن وصف هذا الطائر بما يليق به، ويأتي بما يؤكد هذه الفكرة بأسباب كثيرة منها كثرة ما يحمل من أخبار وحقائق وحرصه على توصيل الرسالة رغم المخاطر، وشدة سرعته التي فاقت الدابة التي تحمل البريد في الصحاري، ولذلك كان جديرًا بهذا الطائر الميمون أن يشابه رُسل الملوك على الأرض بل ويفوقهم سرعة وأمانة

توظيف السرد في بنية رسائل الحمام

لقد تداخلت الأجناس الأدبية" بحيث أصبح من الصعوبة بمكان الفصل فيما بينها، ولذلك نجد النص يمتد وتتفتح مساحاته حتى تتداخل مع أجناس كتابية أخرى من خلال تقنيات عديدة تنصهر جميعها في نص واحد، أما ما يغلب منها من خصال فهي التي تميزه بوصفه جنساً أدبياً محدداً ومعروفاً، لكن مع الإيمان بأنه يحمل من العناصر الوافرة التي تثريه ما يجعله قد يتشابه قريباً وبعداً من هذا الجنس الأدبي أو ذاك، ونحن في هذه الوقفة نتحرى الدراسة الدقيقة لمدى عمق النص ومدى توفيق الكاتب في الوصول بالقارئ إلى فهم غايته من النص المكتوب.

وبعد فانه ليس غريباً أن نجد بعضاً من ملامح السردية يصادفنا بين الحين والآخر، فمن مكونات السرد قد نجد عناصر الزمان والمكان، والشخصيات التي تقوم بالعمل من خلال الفعل أو الحوار أو بالأحرى بالحديث.

ومثل هذه اللحظات التي يتوجّه فيها الكاتب نحو السردية. هي لحظة اتصال القالبيين الأدبيين و تداخل خصائصهما، مؤلدة المعنى الإبداعي الذي حدا بالكاتب إلى كتابة رسالته.

لقد توغل السرد بمفهومه الشامل - من أنه نقلٌ للأحداث من صورتها المتخيّلة إلى صورتها اللغوية - حتى دخل في كافة الأشكال الفنية، مثل الرسم والتصوير والسينما والمسرح، ومن ثم نحن لا نستطيع أن نصف مثل هذه النصوص بالحكايات أو القصص من خلال ما فيها من سرد، فهو لا يتجاوز كونه عدة عناصر متداخلة مع البناء الأساسي للرسالة ذلك أنه مهما اشتملت هذه العناصر على دلالات بنائية قد تقرّبها من القصّ أو الحكى إلا أن ذلك لم يخرجها عن هويتها المتمثلة في إرسال رسالة محددة ذات صيغة أدبية متباريا كاتبها مع منافسين مشابهين له مهما اختلف زمانه عن أزمانهم غير أن الفكرة الوصفية تجمعهم.

ولعل هذا السرد يقدم إفادة فنية للنص؛ إذ يوفّر له انفتاحاً ومساحة أكبر للتعبير بجلاء عن الفكرة أو الهدف ومن ثم كانت مهمتنا حين نرصد هذه الملاحظات حول العناصر السردية المطروحة في تلك الرسائل تتمثل في عقد الموازنات المعتدلة كي نحفظ للنص حقه وصوره التي أرضاها مبدعها من ناحية، وأن نثبت أن البص من الرحابة والسعة بحيث يتداخل مع أجناس أدبية مختلفة.

وهذا العالم الرحب أو بالأحرى المفتوح هو الذي أوحى لنا بفكرة جمع النصوص لكل العناصر التي تخدم الفكرة ومن هنا كانت نظرتنا للنص شمولية بحيث يتسع لجميع جوانب الكتابة وكافة أشكالها الأدبية ممتزجة بفكرته، والأديب ابن بيئته، وفيها تتشكل نفسيته ورؤيته للحياة والمجتمع بما فيه من مؤثرات.

وليس فيما نجده من خضم هائل من أشكال التعبير ما يسيء للنص أو يدعو للتخليط، مع شريطة أن يضيف كل عنصر أسلوبه للنص والغاية منه دون مبالغة أو فوضى.

كما أننا نذهب إلى حضور الكاتب بعناصره السردية بين الحين والآخر يُخرج القارئ من السبات ويهزه بغير قليلٍ من الحيوية والإيجابية المرغوبة وينفض الخمول عن ذهن المتلقي بكافة مستويات تلقّيه.

وفيما يلي عرض لتوظيف عناصر السرد في النصوص السابقة:

أولاً: التشخيص ودوره في إثراء بنية النص

إن الناظر لهذه النصوص ليجد سمات مشتركة بين أساليب الكتاب الأربعة، منها ميلهم إلى التشخيص وتحويل هذا الطائر إلى إنسان يعقل ما يفعله، بل إلى

جندي في جيش السلطان يذعن لأوامره في كل وقت ودون أي رفض أو إملال. من ذلك قول الشيخ السديد عنه "ولا يسأم من الدأب في الخدمة" وكلمة الدأب تدل على الاستمرارية النشطة والإقبال الظاهر مع نفي السأم والملل عنه. وقول محيي الدين. "وكم غنيت في خدمة سلطانها عن الغناء ... وكم سارت تحت أمر سلطانها أحسن السير" واختيار الكاتب لكلمتي "خدمة" و"أمر" يؤكد صورتها التي شابته الجندي المأمور في الجيش.

هذا إلى جانب تعرّضها للأسر مثله، فهي قد تؤسّر من قبل الأعداء وتَصبر، مثل قول ابن حجة "ما سجن إلا صبر على السجن وضيقه الأطواق" ولهذا نستطيع أن نتتبع خطوط هذه اللوحة عندهم جميعاً من تصوير لهذا الطائر الميمون بالجندي المطيع الذي لا يألو جهداً في تنفيذ مهمته المنوط بها. ولعل القاضي الفاضل وفق حين حدّد أدوات الحرب أو القتال التي يتسلّح بها هذا الطائر ألا وهي تلك البطاقات التي خطتها الأقلام فلعل من كثرة ما ينقل فيها من أخبار جسام ما يجعلها تشبه الجيوش في كثرة أعدادها فقال: "وتجهّز جيوش المقاصد..".

ولعل التشخيص يقوم بدور آخر نفسي؛ إذ يملأ الإحساس بالوحشة والحاجة الإنسانية إلى الالتئاس أو ربما تقريب غاية الكاتب، أو قد يكون المقصد الأساسي وراء هذا التشخيص هو خلق عالم مشابه لعالم الواقع وإيجاد دور قوي لما يمكن أن يكون ضعيفاً، أو مستصغراً، أو ربما محقّراً وسط هذا العالم الذي يحكمه منظور القوة والإيجابية في المجتمع ما يجعل بؤرة الاهتمام تشير إلى ذلك الطائر الضعيف بغير قليل من الاحترام، مما يحول ردود الأفعال من الازدراء إلى الانبهار بالمهمات الجسام المنوطة به، ولعلنا نجد في هذا غاية الإبداع المنشود الناضج من خلال تلك الرؤية العميقة من الكاتب للأشياء من حوله.

أما الملمح الثاني الذي نجده مشتركاً بين هؤلاء الكتّاب فهو تلك اللغة التي تنبض بالحياة من خلال حشد الأفعال الإيجابية، فالأشياء صارت أشخاصاً فاعلين ومنفعلين، ومن ثمّ فإن مفهوم التشخيص الذي أشرنا له من قبل تتسع دائرته لتشمل كل مذكور في تلك النصوص حتى أن الطبيعة صارت بكل ما فيها حيّة وحيوية، وتفعل ما يفعله الأشخاص، فعلى سبيل المثال نجد "البُعْد" أو "النوى" يلبس ثوب البشر الذين يريدون ولا يريدون، والطيور أصبحت أقوى تأثيراً حتى أنها ذات سلّطة تسمح لها بتقريب كلّ بعيد من عهود بين الناس، من ذلك قول القاضي الفاضل عنها "ترغم أنف النوى"، "وكم أعارت السهام أجنحة" وفي معنى "أعارت" "ملمح إنساني بشري، فالإعارة لا تكون إلاّ بين البشر ومن هنا صارت السهام أيضاً لها نفس التشخيص، فكما كان النوى رجلاً يحكم بالبُعْد، فكذلك السهام تستطيع أن ترتدي أجنحة الطير لتكون أكثر سرعة، وقد يُنطق الكاتب بعضاً منها مثل

أجنتها عندما يقول محبي الدين: "وكم قال جَنَاحُها لطالب النجاح: لا جَنَاح" وكذلك "و لم تعلم أجنتها بما في شمالها".

إننا نستشعر هنا بالغرابية الممزوجة بالحيوية، فكل الأشياء بينها حوار، بينها لغة يصنعها الكاتب ويضيفها على السنة غير ناطقة، ولننظر في لمحة أخرى إلى تلك الحركة التي يصفها الكاتب في سباق يقوم بين الحمايم السريعة وبين الرياح ويذكر لنا منها "الصَّبَا والجَنَائِب" وكأننا ننظر إلى متسابقين حقيقيين، وما أجمل تصوير سلام المشتاقين بالشخص الذي يريد الوصول، فالكاتب يجعل السلام الذي يرسله المحب هو المحب نفسه يريد الوصول إلى محبوبه، ويجعل منه شخصاً يحتاج إلى السرعة، كما يزيد الصورة حركة ونشاطاً حين يضيف على الرياح صفة تشخيصية أخرى حين يجعل لها كاهلاً يمكن أن يمتطيه السلام ليصل إلى أصحابه، وفي اختيار لفظ "امتطاء" ما يزيد هذه الصورة عمقاً وواقعية. وهما هو النسيم - على سرعته - يجرى ولسرعتها تفوقه وتقوته، يقول ابن حجة "وكم جرى دونه النسيم فقصر" والتقصير أمرٌ منوطٌ بالبشر، والجري كذلك. وكما أن الأعداد الكثيرة من البشر يحدث بينها مزاحمة، فكذلك بين الحمايم والنجوم تحدث المزاحمة "وكم زاحمت النجوم بالمناكب" وكأنها تسابقها هي الأخرى وسط هذا الزحام.

ولعل الملمح الثالث الذي نراه في تلك الصورة المرسومة التي تكاد تكون مشتركة هو ملمح الأمانة التي ألح على تصويرها الكتاب كثيراً فالأمانة سمة لا تفارقها كالأطواق التي بدورها رمز الأمانة في هذا الطائر "وقد أخذت عهدود الأمانة في رقابها أطواقاً" وكذلك "وكم أخذت عهدود الأمانة فبدت أطواقاً في الأعناق".

ويؤكد ذلك بقوله: "ولم يُبق على السر المصون جَنَاح إذا دخل تحت جناحه" "الأمين الذي إذا أودع أسرار الملوك حملها بطاقة" وكما أن الضمير يكون السر مكنوناً فيه فكذلك الأسرار التي تحملها لا يطلع عليها سوى أصحابها، وهي حريصة دائماً على توصيلها باختيار الطريق الآمن "ليأمن من فوت الإدراك وأخطاره" كما يقول الشيخ السديد.

ولعل النص الأكثر حشداً للصور الحركية وإضفاء الأفعال التشخيصية للأشياء كان نص ابن حجة، فهو نص يعج بالحركة في كل جملة لا نكاد نترك فعلاً حتى نرى فاعله ومن انفعله به، حركة دائبة ومستمرة في تناغم وإيقاع نستخرجه من تلك الأفعال، فقد طلبت الحمامات السبق وجرى دونها النسيم فقصر، وغنّت على العود فأسالت الدموع، التي هي بدورها دموع الندى الموجود في الحدايق التي يمر عليها أثناء طيرانه، وهذه الحمايم على تفوقها وسرعتها مع جمال صوتها وعذوبة ألحانها تقوم بأفعال كثيرة فهي تُظهر وتُخفي وتُدير الكؤوس، ولكن سقياها من

السجع البديع الذي له حلاوة يتذوقها مَنْ يسمعه، وهي تعود إذ صار القضاء لها بحر، والجبال فيه أمواجًا تعلو وتهبط في حركة مستمرة متناغمة، أضفت على النص جمالا وسرعة في الإيقاع وافقت سرعة هذا الطائر محور الحديث.

وإذا كان الفضاء هنا هو البحر والجبال بانخفاضها وارتفاعها أمواجًا فالصورة تختلف عند القاضي الفاضل إذ إن الجو بحر، أما هبوب الرياح بصوتها بين الحدة والضعف فيمثل الأمواج. أما الجو عند الشيخ السديد فهو ميدان المعركة لهذا الجندي الهمام، وجناحه مركبه الذي يمتطيه، وكأنه جواد هذا الفارس في ساحة القتال، وأما الرياح فهي ذلك الموكب الذي يسير فيه منتصرا على الأخطار والمخاطر.

وقد تنوعت الصورة حين أراد الكاتب تشخيص سرعة هذه الحمايم فهي عند القاضي الفاضل أسهم للحاجات "أعدت في كنانتها". أما عند ابن عبد الظاهر فهي أسرع من الأسهم إذ إن أجنحتها جعلتها تفوقها سرعة ونفاذاً "فكم أعارت السهام أجنحة فأحسنّت بتلك العارية المطار" ومن هنا جاءت أهمية الجناح لقوته، ولما يقوم به من حماية وحفظ للبطاقة المرسلة، ولما يساعد به هذه الأجسام الشبيهة بالأسهم لتستطيع بلوغ ما تريد من "مقاصد" أو "غايات" أو "حاجات".

ولذلك هي "أسرع من السهام المفقوة". وقد وصفها ابن حجة بأنها أسهم ولكن "مُرَّيشه". "ولا أطلق من كبد الجو إلا كان سهما مريشاً تُبلغ به الأغراض".

هذا إلى جانب ما نلمحه من فكرة إيراد الخبر معلّلاً أو مفسّراً، وربما يعدد الكاتب أسباباً، ويذكرها مفصّلة ليؤكد فكرته ويدافع عنها بالحجج والبراهين، ولا شك أن هذا الأسلوب مؤثر في حكمنا على الكاتب، ويجعل المتلقي يشعر بصدقه، وذلك من خلال استعراضه للبراهين المثبتة لأفكاره وقد ظهرت هذه السمة بجلاء عند محيي الدين بن عبد الظاهر حين رصد أسباب اختيار تحت الجناح مكاناً للرسالة، وكذلك في نص الشيخ السديد الذي يُعلّل انبهار المشاهد لهذا الطائر حين يطير مرسلًا بالبطائق، فيقف عاجزاً عن التعبير لأنها تحمل آيات كثيرة في طيرانها من سرعة وعلو في الجو واختيار للطريق المؤمّن.

وفي قوله "لأمن من فوت الإدراك وأخطاره" تعليل ومنطقية تتلاءم مع تشخيص الطائر الذي نستشعر فيه حكمة الحكماء، وقوة المحاربين، وأمانة الأمناء، وطاعة المأمورين المخلصين. فكانه ناطق وإن كان صامتاً، وهو عند القاضي الفاضل شخص بليغ اكتسب المهارة البلاغية مما يحمل من أخبار كثيرة ذات أساليب فيها حُسْن القصد والإيجاز دون نقص. "ومن بلاغات البطائق استفاقت ما هي مشهورة به من السجع"، وهو عند ابن حجة من "العجماء التي من أخذ عنها شرح المعلقات فقد أعرب عن دقائق المفهوم والمقدمة والنتيجة للكتاب الحجلي في منطق الطير".

من كل ما سبق نستطيع أن نقول إننا نستشعر الحركة المستمرة التي أضفت جواً من النشاط ساعد على إظهاره الاختيار الموفق للكلمات والأفعال المناسبة لإبراز تلك الحيوية والإيجابية من قِبل حمايم الرسائل.

أما عن الصور البلاغية أو المحسنات البديعية فعلى حين نجدها تكاد تختفت أمام قوة وواقعية الحجة في النص المنقول عن تميم الحمائم، إلا إن ذلك سرعان ما يزول في باقي النصوص، حيث يحتشد السجع المتناغم مع الجناس بأنواعه حشوداً لا تكاد تقوّت عبارة دون المرور عليها، مع الاحتفال الشديد بالصور البيانية والاستعارات والاقتراس الوافر من القرآن الكريم. ولا شك أن الحفاوة البالغة بشئ ألوان الصور والبديع شكّلت سمة مميزة لهؤلاء الكتاب على اختلاف عصورهم، وكان حقل الرسائل الأدبية الوصفية حقلاً رحباً يتسع لمثل هذه الحشود من الزينة اللفظية.

ثانياً: الزمن وأهميته في تحقيق غاية الكاتب

لعل عنصر الزمن من أهم العناصر السردية الموجودة في تلك الرسائل التي ندرسها، وذلك لأنه يقوم بمهمة كبيرة في تأكيد أهمية دور هذا الطائر ومدى جسامة ما هو منوط به من مهمات كبرى، ولأن عنصر السرعة هو المعوّل عليه في تأدية هذه المهمة ورد ذكر الزمن ومعطياته الكثيرة بوفرة مما يؤكد سرعة الطائر بعبارة "أسرع مده"،

ولخطورة مهمته فإن الملك "لا يمهّل لحظة" عنه، وكذلك إذا كان يأكل "لا يمهّل حتى يفرغ" وإذا كان نائماً "لا يمهّل حتى تستيقظ"، وفي كلمة "لا يمهّل" وتردها ما يؤكد أهمية الزمن سواء بالنسبة للطائر في سرعة أداء مهمته، أو بالنسبة للملك المستقبل للرسالة. والدليل على أهميته عنصر الوقت أن الرسالة "تورخ بالساعة واليوم لا بالسنين" حتى لبّ الرسالة ينبغي أن تُراعى فيه السرعة فيما قلّ ودلّ دون حشو، وقد أكد الكتاب أنها تأتي بخبر قد يقطع المرء شهراً سائراً في الصحراء كي يعرفه فإذا بحمامة صغيرة تأتي به تحت جناحها في عشية نفس اليوم، ولعل المفارقة بين يوم وشهر تؤكد هذا ؛ وذلك لشدة عزمها وقوة إرادتها، وقد أكد على المعنى نفسه القاضي الفاضل حين قال "لا تقوت الإرادات عن إنجازها" ولشدة سرعتها سارت "طيف خيال الیقظة"، وقوله "ثرغم أنف النوى بتقريب العهود" وتكاد العيون تلاحظها "لأنها تمر كالبرق الخاطف أو كالنجم، وعند الشيخ السديد مقارنة يعدها بين سرعة حمايم الرسائل في توصيل البريد، وسرعة البرد القاتمين على أمر البريد فيقول: "ووصله إلى أقرب الساعات بما يصل إليه البريد في أبعد الأيام".

وقد أكد ابن عبد الظاهر الفكرة نفسها حتى صار الاستغناء عن البريد بالحمائم، فقال: "فكم أغنت البرد عن جوب الفقار" كما يؤكد أنها تعمل في أي وقت ليلًا

ونهاراً، فيقول: "وكم سرت فحمدت المساء إذ حمد غيرها من السارين الصباح" وسرعتها تفوق "وتسبق الملح"، "تفوت الطرف السابق والطرف الرامي الرامق"، "أسرع من السهام المفوكة".

وعند ابن حجة السرعة مماثلة فلقد "طلبسبق فلم يرض بعرف البرق سرخاً ولا استظلّ صفحته المصقولة". "وكم جرى دونه النسيم فقصر" وهو في سرعته كالسهم المُرِيّش والغاية السبابة.

أي سرعة تلك التي يتحدثون عنها؟! هي سرعة فائقة لا تكاد تتركها العيون أو تتابعها، وهي تتفوق على كل مظاهر الطبيعة السريعة من برق ونسيم ومطر، وكل المظاهر الصناعية السريعة من سهام وبرد، لقد برع الأدباء في رسم صورة جميلة للزمن السريع وللطائر الأسرع. وفي هذا التوظيف توفيق كبير صاحبهم في رسم صورة في ذهن المتلقي حول سرعة طيران حمامات الرسائل وتمييزها الكبير عن غيرها من مظاهر، فهي تدهشنا في سرعتها التي تكاد نلمحها مجرد لمحة خاطفة.

ثالثاً: المكان ودوره في بنية الرسالة:

نعل الناظر إلى نص محيي الدين بن عبد الظاهر يتأكد من أهمية المكان في سير رحلة الطائر وصولاً إلى هدفه المعنى في توصيل الرسالة وإتمام المهمة، ومما يؤكد ذلك ذكر أماكن معلومة ومعيشة كالإسكندرية ومنية عقبة والجيزة والشرقية ... الخ.

وهذا ما نسماه - إذا جاز لنا - المكان المرتبط بالواقع، أو المكان الفعلي، أو كما سمّاه الكاتب "أمكنة معلومة". ولم يتوقف أمر تناول المكان عند ذلك الحد، وإنما نجد تاج الدين بن الأثير يتسع بالوصف إلى مكان أرحب، ألا وهو البيئة الطبيعية التي تحتضن هذا الطائر، ويتنقل بين أرجائها مثل السحب والأمطار.

ويأتي ذكر الريح دلالة على سرعتها الفائقة عند أحمد القيرواني، وعند غيره تتسع صورة المكان أكثر فأكثر فمن الشمس إلى الغار وما فيه من إحياءات قدسية، إلى مكة يوم الفتح، إلى الهند على بعدها، حتى يصل الكاتب إلى أقصى حدود المكان بين الدنيا والآخرة، أما المكان عند القاضي الفاضل فتتمثل في الأرض التي تزوي بطيرانه، والرياح التي تسابقها، والبروج التي تسكنها، والأنجم التي تمرّ بها، وأغصان الأشجار التي تقف عليها، وأجنحتها التي صارت قلوغاً، والجو هو البحر الذي تسبح فيه، ويتكرر الوصف نفسه عند الشيخ السديد فقد نقل المكان من الأرض إلى البحر، فسارت الحمام كالمراكب والرياح كالأمواج، وعند محيي الدين بن عبد الظاهر يتضح التشديد على ذكر الصحراء والقفار وامتنائها السحاب.

أما الأديب تقي الدين بن حجة فيؤكد أن جمال هذا الطائر يفوق جمال الصرح الممرّد، كما يستخدم المفارقة حين ذكر السجن وضيقه الأطواق في رقاب الحمام وكأنها سجينه مهمتها، كما أكد اتساع مكان تواجدها فهو رحب رحابة الفضاء، كثيف كثافة موج الجبال، وهي من إرادتها تراحم النجوم في السماء.

رابعاً: ظواهر سردية أخرى (المعاناة - اختفاء الحوار - الصراع)

إن الكاتب في سرده لأحداث الانتقال والارتحال والأسفار، يقوم بذلك في تناغم وانسجام دون إدخال الغريب أو غير المفهوم على طبيعة الرحلة، ولما كان الحوار غير خادم لغاية الكاتب بصورة فعّالة وجدناه مهمشاً عند أحدهم، وقد يختفي عند الآخر، وإلا سقط الكاتب في حفرة اللغو الذي لا طائل من ورائه، فمهمة الكاتب الأساسية أن يكشف عن مقاصده بكل ما يوضّحها مع البعد عن كل ما يحول دون ذلك من إغراب أو تعقيد أو ترّهات.

والمعاناة تجذب المتلقي حين تتلاحم الأحداث حتى تبلغ الذروة، وقد وجدناها متوفرة وموصوفة ببراعة، معبرة عما في نفس الكاتب من تناقضات، فلعلها المعاناة التي يلقاها المرء حتى ينهي متطلبات حياته المجتمعية المعيشية بنجاح هي الأخرى. ولذلك هو يسهب في سرد تلك المعاناة ويشدد من وطأتها حتى يشركنا فيها ويشعرنا بمعاناته هو نفسه من خلال التداخل المستمر بينه وبين حال الطائر محور الرسالة.

كما شكّل الصراع عنصراً مهماً في تلك النصوص حين عرض الكتاب له بين الشخصية المحورية "الحمايم" وبين معوقات رحلتها، وقد تمثّلت في الأسر والصيد واعتراض جراح وانقضاء كاسب كاسر، وكانت مهمتها

الأساسية تدور حول ردع وتوقيف حمايم الرسائل عن أداء مهمتها السامية، وهو ما عبّر عنه الكتاب بـ"قوت الإدراك".

وبعد، فإننا نرجو أن يخرج القارئ من خضم هذه المباريات الأدبية برؤية واضحة عن إسهام الأدباء في التعبير عن دور هذا الطائر في خدمة الدولة الإسلامية بهذه الأساليب اللغوية ذات العناصر الجمالية المتنوعة.

وبالله التوفيق والسداد

فهرس المراجع

- 1- أساس البلاغة، الزمخشري، ج 2، دار الكتب، مصر، 1972.
- 2- البداية والنهاية، ابن كثير، ج 12، 13، ط 2، مكتبة المعارف، 1977.
- 3- الحيوان في الأدب العربي، شاكر هادي شكر، ج 1، ط 1، مكتبة النهضة العربية، لبنان، 1985.
- 4- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ابن حجر العسقلاني، ج 1، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1966.
- 5- الفن ومذاهبه في النثر العربي، شوقي ضيف، ط 3، بيروت، 1956م.
- 6- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات وحامد عبد القادر ومحمد علي النجار، دار الدعوة بتركيا، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة، 1986.
- 7- الموسوعة العربية الميسرة، محمد شفيق غربال، المجلد الأول، 1959.
- 8- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابن تغري بردى، ج 6، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1970.
- 9- بدائع الزهور في وقائع الدهور، ابن إياس، ج 1، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975م.
- 10- بلاغة الكتاب في العصر العباسي (دراسة تحليلية) نقد لتطور الأساليب، محمد نبيه حجاب، ط 2، 1986.
- 11- ثمرات الأوراق، ابن حجة الحموي، تحقيق وتعليق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، لبنان، د.ت.
- 12- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، جلال الدين السيوطي، المجلد الثاني، دار الكتب العلمية، لبنان، 1997.
- 13- شرح مقصورة ابن دريد، الخطيب التبريري، ط 1، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، دمشق، د.ت.
- 14- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القلقشندي، ج 14، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1919.
- 15- معجم لسان العرب www.alkalemat.com
- 16- موسوعة الحيوان (الطيور)، إعداد: غراثا قره بتيان، الدار العربية للعلوم.
- 17- نظرية الأنواع الأدبية، ترجمة حسن عون، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1978.

الهوامش

- (1) المجلد الثاني، ص 268.
- (2) حيث لا يغيب عن الكتاب أنهم يؤلفون أثرًا فنيًا، وحينئذ فقط تؤلف الجملة لا لمجرد الحاجة وحدها، ولا لمجرد شرح الفكرة جيدًا، كان ذلك الشرح جيدًا أم رديئًا، ولكن رغبة في أن يكون تأليفها جميلًا، حتى تسترعي اهتمام الإنسان وتؤثر فيه تأثيرًا كاملاً. نظرية الأنواع الأدبية، ص 43.
- (4) انظر دائرة معارف القرن العشرين، ج 3، ص 609، وكذلك الموسوعة العربية الميسرة المجلد الأول، ص 735.
- (5) انظر في ذلك الحيوان للجاحظ، ج 3، ص 413.
- (6) انظر موسوعة الحيوان، ص 64، وحياة الحيوان الكبرى، ج 1، ص 257.
- (7) موسوعة الحيوان، ص 63، وفي هامش الحيوان للجاحظ، ج 3، ص 420. الزجل و الزجل: هو: إرسال الحمام.
- (8) صبح الأعشى، ج 14، ص 434.
- (9) الحيوان، ج 3، ص 435.
- (10) دائرة معارف القرن العشرين، ج 3، ص 609، وحول الفكرة نفسها انظر: دائرة المعارف الإسلامية، ج 8، ص 67.
- (11) موسوعة المورد العربية، المجلد الأول، ص 447.
- (12) الحيوان، ج 3، ص 208.
- (13) نهاية الأرب، ج 10، ص 273.
- (14) المرجع السابق، ج 1، ص 279.
- (15) ابن كثير: هو الإمام الجليل الحافظ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير بن ضوء بن كثير بن زرع البصري ثم الدمشقي الفقيه الشافعي.. كان ابن كثير على مبلغ عظيم من العلم، خصوصًا في التفسير والحديث والتاريخ وتوفي 774هـ. انظر في ترجمته: طبقات المفسرين للدوادى، ص 327 والدرر الكامنة ج 1، ص 373، وشذرات الذهب ج 6، ص 231، و التفسير و المفسرون، محمد حسين الذهبي، ص 162.
- (16) السلطان نور الدين الشهيد: المتوفى 569 هـ هو: نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكى بن آق سنقر صاحب الشام ومصر، المعروف بنور الدين الشهيد. عاش ثمانيا وخمسين سنة، ورثاه العماد الكاتب، من ذلك قوله:
يا مليكا أيامه لم تزل
ملكك دنياك وخلقتها
لفضيله فاضلة فآخره
وسرت حتى تملك الآخرة
- النجوم الزاهرة، ج 6، ص 71.
- (17) وهو أشهر أنواع الحمام، ينقل الرسائل ويعود إلى وطنه مهما بعدت المسافة. يطير 1000 كم، ويطير دون انقطاع لمدة 13 ساعة وبسرعة كيلو متر في الدقيقة، الموسوعة العربية الميسرة، ص 735، وقد تزيد سرعته على 145 كيلو مترًا في الساعة في بعض الأحيان

موسوعة المورد العربي، ص 447، وفي الأمثال يُقال "أهدى من حمامة" جمهرة الأمثال، ج 1، ص 353.

(18) القاضي الفاضل: المتوفى سنة 596هـ، هو: أبو علي عبد الرحيم البيساني اللخمي، كاتب الديار المصرية، وصاحب الطريقة الفاضلية، والكتابة البديعية. وُلِدَ بمدينة عسقلان سنة 529هـ، وتعلّم على أبيه بهاء الدين على البيساني وغيره، ولما شدا من العربية شيئاً قديم مصر وهو شاب أواخر الدولة الفاطمية لتعلم الكتابة والخدمة في الديوان. ، وردت ترجماته العديدة في كتب الأدب، ومنها: حُسْنُ المحاضرة للسيوطي، ج 2، ص 216، والروضتين لأبي شامة ج 2، ص 232، وبدائع الزهور لابن إياس ج 1، ص 75، ووفيات الأعيان، ج 1، ص 284، ونهاية الأرب للنويري ج 8، ص 1، ص 51، وج 10، ص 280، وشذرات الذهب لابن العماد ج 4، ص 325، وخريدة القصر للعماد الأصفهاني ج 1، ص 35، والوشى المرقوم لابن الأثير ص 9، والنجوم الزاهرة، لابن تغرى بردى ج 6، ص 156. والخطط لعلي مبارك، ج 6، ص 12، وكشف الظنون لحاجي خليفة ج 2، ص 1016، والأعلام للزركلي ج 3، ص 346.

(19) العماد الكاتب: المتوفى 597، هو عماد الدين محمد بن محمد بن حامد، وُلِدَ بأصبهان سنة 519هـ، وقدم به أبوه إلى بغداد واستقرّ بها. وانتظم وتقفه بها، وتقف علوم العربية. انظر. عصر الدول والإمارات، ص 782، معجم الأدباء، ج 18، ص 11، وفيات الأعيان، ج 5، ص 147، والوافي بالوفيات، ج 1، ص 133، والبداية والنهاية، ج 12، ص 269، وج 13 ص 30، وشذرات الذهب، ج 4، ص 332، والنجوم الزاهرة، ج 6، وخريدة القصر، المقدمة.

(20) طرب منه أو له - طرباً: خفّ واهتزّ في فرح وسرور، قيل: الطرب خفة تعترى عند شدة الفرح.

(21) الخليفة الناصر لدين الله: هو خليفة عباسي ببغداد وفي عهده بدأت الكتابة عن تصنيف الحمام، وذلك على يد أبي الفوارس أبو الحسن بن مُلاعب البغدادي، وفيه: "ذكر أسماء أعضاء الطائر ورياشه والشوم التي تُوشم في كل عضو، وألوان الطيور وما يُستحسن من صفاتها، وبيضه أفرأخا، وبُعد المسافات التي أرسلت فيها وذكر شيء من نواذرهما وحكاياتها، وما يجري هذا المجرى. صبح الأعشى، ج 14، ص 436.

(22) حمام البطاقة والمقصود به الحمام الرائل، وهو الذي يتخذ الملوك لحمل المكاتبات، ويُعبّر عنه بالهذّي، صبح الأعشى، ج 14، ص 436.

(23) وقيل إنه باع طيراً" في نصّ النجوم الزاهر، ج 6، ص 139. وذلك لأنه طار من القسطنطينية إلى البصرة" زيادة في نص صبح الأعشى، ج 14، ص 436.

(24) القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر: المتوفى 692هـ وهو "محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان المصري الأديب كاتب الإنشاء بالديار المصرية، وأحد البلغاء المذكورين، له النظم الفائق، والنثر الرائق، ومصنّفات منها سيرة الملك الظاهر. سنة ستة وعشرين وستمائة، ومات بمصر في رجب سنة اثنتين وتسعين ودُفن بالقرافة" فوات الوفيات ج 1، ص 212 : 219، وحسن المحاضرة، ج 1، ص 570، وبدائع الزهور ج 1، ص 125، ونهاية الأرب ج 8، ص 301، وصبح الأعشى، ج 10، ص 168. والنجوم

- الزاهرة، جـ 8، ص 38، وتاريخ ابن كثير، جـ 13، ص 334، وشذرات الذهب جـ 5، ص 421، وحسن المحاضرة، جـ 1، ص 470، وجـ 2، ص 366.
- (25) وقد ذكر حاجي خليفة أن "كتاب تمانم الحمام لمحيى الدين بن عبد الظاهر، صنّفه حين حافظ عليها الفاطميون بمصر وبالغوا فيها حتى أفردوا لها ديواناً وجراند بأنساب الحمام" كشف الظنون جـ 1، ص 391. وله بيتان في بُعد الحمام عن الأحران قال فيهما:
 "نسب الناس للحمامة حزناً وأراها في الحزن ليست كذلك
 خضبت كفها وطوقت الجيب دوعت وما الحزين كذلك"
- موسوعة الحيوان، ص 67.
- (26) "سرح وسروحاً: خرج بالعادة: يقال: سرح الرسول: أي أخرجه في حاجة"، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (سورة النحل 6).
- (27) البطاقة هي "الرقة الصغيرة من الورق وغيره، يكتب عليها بيان ما وتعلق عليه، جمعها: بطائق، وبطاقات" وهي صحيفة يسجل عليها الأسماء،
- (28) تطوي: طوي الشيء: ضمّ بعضه على بعض، أو لفّ بعضه على بعض و طوي المكان إلى المكان: جاوزه.
- (29) زويت الشيء: جمعته و قبضته.
- (30) وهم: ما يقع في ذهن من الخاطر.
- (31) الهمة: ما هم به من أمر ليفعل، أو العزم القوي.
- (32) قلوغاً: قال ابن بري: يقال: أفلعت السفينة إذا رفعت قلعها عند المسير ". والمقصود هنا ما يتحرك به المركب كالشراع.
- (33) أعجازها: العجز مؤخر الشيء، وجمعها (أعجاز) وأعجاز النخل أصولها.. وأعجاز الأمور أواخرها .
- (34) بلاغات: وهو ما يتوصل به إلى الغاية.
- (35) يقال رجعت الطير رجوعاً، رجاعاً أي قطعت من المواضع الحارة إلى الباردة، ورجع فلان من سفره أي عاد منه.
- (36) البرج هو الحصن - البناء العالي الذاهب في السماء، وبرج الحمام بناء خاص يأوي إليه
- (37) كنان: الكنانة جعبة صغيرة من أدم للنبيل، و جمعها كنانن...
- (38) نيطت: ناط الشيء بغيره نوطاً.. علقه، وناط الأمر بفلان ونيط عليه الشيء، عهد به إليه.
- (39) الرقة: قطعة من الورق أو الجلد يكتب فيها، و جمعها رقاع .
- (40) يقصد بالأولى الرسائل المخفية تحت الجناح، والثانية المقصود بها الأجنحة.
- (41) أنجم السعد: عدة كواكب يقال لكل واحدة منها سعد كذا، ومنها سعد السعد وهو أحدها.
- (42) الشيخ السديد أبو القاسم هو "السديد علم الرؤساء أبو القاسم عبد الرحمن بن هبة الله بن حسن بن رفاعة من أهل مصر، المعروف بكاتب الأمير ناصر الدولة" وردت ترجمته في المغرب في حلي المغرب: لابن سعيد ص 117، وكان القاضي الفاضل يقول: "إنه أفضل من بمصر نظماً ونثراً" انظر في تفصيل ذلك خريدة القصر وجريدة العصر "قسم شعراء مصر"، جـ 1، ص 56.
- (43) الثرى: الأرض والندى والتراب.

- (44) الثريّا: مجموعة من النجوم في صورة الثور، وكلمة النجم علمٌ عليها.
- (45) يقصد: القاضي الفاضل، وسيقت ترجمته.
- (46) عبد الحميد الكاتب هو: أبو غالب عبد الحميد بن يحيى بن سعد مولى بني عامر بن لؤلؤى وقد أجمع المؤرخون على أنه صاحب طريقة جيدة في الإنشاء العربي انظر: وفيات الأعيان ج 12، ص 146، والفهرست، ص 117، والعقد الفريد، ج 1، ص 206، ومروج الذهب، ج 6، ص 81.
- (47) البُرْد: الرسل على دواب البريد، يقال لدابة البريد (بريد) أيضًا: لسيره في البريد، فهو مستعار من المستعار، والجمع (بُرْد) ،
- (48) "جيب القميص ونحوه: ما يُدْخَل منه الرأس عند لبسه ، و الجمع جيوب وأجْيَاب، وفي التنزيل العزيز ﴿وَلْيَضْرِبْنَ عَلَى خُيُوبِهِنَّ﴾، ويقال: فلانٌ ناصح الجيب: أمين.. وجيب الثوب: ما توضع فيه الدراهم ونحوها.
- (49) جُنَاح: الإثم والجُرم والميل إلى الإثم وما يَتَحَمَّل من الهم والأذى.
- (50) "ساوqه: تساوق: تتابع ،و ساوqه: باراه أيهما أشد وأسرع، وساق معه. وتابعه وسائره وجاراه" ..
- (51) الصَّبَا: ريحٌ مَهْبُها من مَشْرِق الشمس إذا استوي الليل والنهار هي تستقبل البيت، والجمع على صبوات و أنصباء.
- (52) الجنائب: "ريحٌ تهبُ منها الجنوب.
- (53) الهديل "صوت الحمام، يُقال هَدَل الحمام أو الغلام - هَدَيْلا صوت، والشئ هَدَلًا: أرسله إلى أسفل وأرخاه.
- (54) الهدير: يقال: هدر الشيء: أبطله.. والبعير أو الحمام: هُنْزًا وهَدِيرًا.. رَدَد صوته من حنجرتة.
- (55) أطواق: الطوق كل شيء مستدير، وكلُّ ما أحاط بشيء خلقه كطوق الحمام أو صنعة كطوق الذهب والفضة يحيط بالعنق، ومنه قيل للحمامة ذات أطواق والمطوقة: الحمامة التي في عنقها طوق والجمع أطواق".
- (56) الملح "لمحت إلى الشيء لمحا: من باب نفع نظرت إليه باختلاس البصر للمحة: النظرة بالعجلة ،و قيل لا يكون الملح إلا من بعيد.
- (57) السلكة "سليك اسم رجل وهو سليك السعدي وهو من العدائين و اسم أمه سلكه.
- (58) ابن دريد: "هو العالم اللغوي" والأديب والراوية أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، وُلد بالبصرة سنة 223 في خلافة المعتصم وتوفي سنة 321" انظر: معجم الأديباء ج 8، ص 140، أما مقصورته فهي قصيدة مطوَّلة بليغة نالت إعجاب الأديباء بها ومعارضتهم لها، حتى أن المستشرقين ترجموها. يقول التبريزي عنها: أما قصيدته المعروفة بالمقصورة، فهي أشهر شعره، وهي من أجوده وأحسنه، وبها سار ذكره في عالم النظم.. وقد أنشأها في مدح الأميرين: عبد الله بن محمد وابنه أبي العباس إسماعيل، ويُقال: إنه أحاط فيها بأكثر القصور وهي طويلة تبلغ 253 بيتًا، وفيها من البراعة اللغوية والمقدرة الشعرية والإشارات التاريخية والأدبية والحكم المنثورة والنفثات الشخصية ما يرفعها إلى درجة عالية. شرح مقصورة ابن دريد، ص / ك.

أولها:

طَرَّةٌ صُبُحَ تَحْتَ أَدْيَالِ الدُّجَى
مِثْلَ اشْتِعَالِ النَّارِ فِي جَزَلِ الْغَضَى

لما ترى رأسي حاكمي لونه
واشتعل المبيض في مسوده

شرح مقصورة ابن دريد، ص 3.

(59) هو تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله المعروف بابن حجة الحموي، ولد بحمص سنة 767، ونشأ بها، ودرس على شيوخها وأساتذتها، وأخذ عنهم فنونا من العلم والأدب وارتحل إلى دمشق والقاهرة وتزوّد من حلقات علمائها وأدبائها، توفي 837هـ، انظر: خزانة الأدب، المقدمة، الضوء اللامع ج 6، ص 277، وج 1، ص 54، وج 11، ص 53، وشذرات الذهب ج 7، ص 219، والنجوم الزاهرة ج 15، ص 189، وثمرات الأوراق في التصدير، وتاريخ علوم البلاغة للمراغي، ص 162.

(60) عكرمة هو أبو عبد الله عكرمة البربري المدني مولى ابن عباس أصله من البربر بالمغرب روي عن مولاه، وعلي بن أبي طالب وأبي هريرة وغيرهم. ت سنة 104هـ، انظر: التفسير والمفسرون، لمحمد حسين الذهبي، وكذلك تهذيب التهذيب، ج 7، ص 263: 273.

(61) مقصص: جاء بالطير في قفص، وفي أقفاص، وتقصص الشيء: تشابك، وقصص الطيبي والداية: شدّ قوائمه، أساس البلاغة، ج 2، ص 268.

(62) الصّرح: القصر العالي.. والبناء العالي الذاهب في السماء، وفي التنزيل قال "إنه صرحٌ ممرّد من قوارير والجمع صروح.

(63) التميمة: ما يُعلّق في العنق لدفع العين، جمع تائم، وهي خرزة رقطاع تنظم في السير ثم يعقد في العنق.

(64) القوادم: قوادم الطير: مقادير الريش في كل جناح عشر، الواحدة (قادمة وقدامى).

(65) الطمس: الطموس الدروس و الانمحاء، ويُقال: طمس القمر أو النجم أو البصر أو نحوه: ذهب ضوءه...".

(66) البيازى: ضرب من الصقور، يستخدم في الصيد (ج) أبواز وبيزان "المعجم الوسيط ص 76.

(67) العقبان: جمع عقاب، والعقاب طائر من كواسر الطير قويّ المخالب، مُسرّول، له منقار قصير أعقف، حادّ البصر، و الجمع: أعقب وعقبان".

(68) قلامة الهلال: قلم الظفر، وقلم الأظفار بالقلمين، وهما الجلمان، ولم يُغن عني قلامة ظفر، أساس البلاغة، ج 2، ص 274.

وقد سبق القاضي الفاضل إلى ابتكار هذا التشبيه في رسالته التي كتبها في صفة قلعة شاهقة اسمها كوكب، فقال: "وألمة إذا خضبتها الأصيل كان الهلال لها قلامة" وهو تحليل لبيت ابن المعتز في وصف الهلال:

ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا
مثل القلامة قد فُذّت من الظفر

والتعبير فيه مراعاة دقيقة للنظير، مما يدلّ على براعة صاحبه اللغوية انظر: وفيات الأعيان، ج 1، ص 510.

(69) نظرية الأنواع الأدبية، ص 56.

(70) المرجع السابق، ص465.

(71) نفسه، ص388.

(72) وصف الحيوان في الشعر الأندلسي، ص265.

(73) خريدة القصر و جريدة العصر، ج1، ص36:35.

* * *